الفصل الثامن

"أثر الرحلة المكية على الحياة العلمية والاجتماعية"

obeikandl.com

obeikandl.com

منذ أن انتقل الثقل السياسي من الحجاز بعامة، ومن المدينة بخاصة، بانتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق وبغداد، ثم القاهرة؛ اتسمت مكة والمدينة بالهدوء والاستقرار، وغلب عليها الطابع الروحي والعلمي، فانصرف أهلها للعلم والعبادة، ورغم ذلك لم تنقطع الصلات بين الحجاز والعواصم والناس، بل استمر محطَ الرحال، ومهوى الأفئدة، إليه يفد طالبو العلم، والمحبون، والتجار، والحجاج، والمعتمرون، فاجتذاب الرحالة المسلمين، حتى لقد أغرت المدينتان المقدستان غير المسلمين – كذلك – بالوفادة إليها.

وتنفرد مكة من بين مدن العالم جميعًا – نظرًا لأهميتهما الدينية في قلوب المسلمين – باجتذابها هجرات من آفاق العالم الإسلامي، وكان لذلك أثر كبير في تركيبتها السكانية، حتى صار السكان الأصليون قلة، وسط جموع تتدفق سنويًا في موسم الحج والعمرة، فيستقرون فيها عائلات وأفرادًا؛ يتَّاجرون أو يجاورون، ويتعلمون أو يُعَلِّمُون.

مقومات الرحلة المكية المؤثرة فى الحياة العلمية والاجتماعية :

من المعروف أن العنصر السكاني من حيث الجنس والدين، وطبقات المجتمع، ثم العادات والتقاليد والأعياد والاحتفالات والألبسة والأطعمة والمنشآت الاجتماعية، فضلاً عن الأحوال السياسية، والأوضاع الاقتصادية، كل ذلك عوامل مؤثرة في الحياة الاجتماعية في أي بلد من البلاد. ومكة والمدينة هاتان المدينتان المقدستان لهما من الأهمية ما جعلهما تنفردان في بعض العوامل المؤثرة في حياتهما الاجتماعية، أهمها: الحج وأوقاف الحرمين والمجاورون.

أولاً : بالنسبة للحج :

لقد أتاح الحج للمجتمع المكي والمدني الاختلاطَ بأبناء الشعوب الإسلامية الوافدين إلى المدينتين المقدستين للحج والزيارة، فيحتكون بهم ويتفاعلون معهم، ويرون ملبسهم ومأكلهم ولهجاتهم التي يتحدثون بها، ويطلعون على جانب من عاداتهم وتقاليدهم، خصوصًا وأنهم يقيمون مدة لا تقل عن شهر في مكة، ومثلها أو أقل منها في المدينة، فيتعايشون مع هؤلاء الحجاج، ويشهدون عن كثب ما يمارسون من نشاطات، وليس بوسع أفراد المجتمعين إلا أن يتأثروا فيما يرون.

وقد يتطور هذا التعايش بين المجتمعين: المكي والمدني والحجاج، وتحصل بعض المصاهرات التي تؤدي إلى امتزاج هذه الأجناس القادمة إلى الحج، فيختلطون ببعضهم، ولا يزال المجتمع المكي والمدني في عصرنا الحاضر يعكس آثار ذلك بشكل ملحوظ؛ فنجد هذا الامتزاج ظاهرًا في كثير من الأمور. ولذا فإنه من المؤكد أن الحج قد أثر تأثيرًا قويًا في المجتمع المكي والمدني.

ومن ثم فقد تعوّد المسلمون منذ العهد النبوي الأوّل أن يكون الحرم المكّي في موسم الحجّ موطناً للقاء بين العالِم والمتعلّم ومكان التلقّي للمعرفة والتفقّه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال حجّة الوداع قائماً على التعليم والتثقيف، يُسأل فيجيب، ويتجمع حوله الناس فيبلّغ المعرفة والهداية. إلاّ أنّ تفقيهه ذلك لم يكن ليصل إلى جميع المسلمين، فدعا الناس وهو في الخيف من منى إلى إبلاغ المعرفة وتداولها والعمل على وصولها إلى كافّة الناس، وإنّ المعرفة أمانة عندهم عليهم إبلاغها لأيّ مسلم كان وتلقيها من أيّ مسلم كان بشرط الصدق والإخلاص. فقد روى الترمذي في

سننه حديثاً نصّه: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال: نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثمّ أسلمها إلى مَن لم يسمعها. فربُبَّ حامل فقه لا فقه له، وربُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه" (١٩٧).

ودأب المسلمون على ذلك منذ فجر الدعوة إلى يوم الناس هذا، فإذا مكّة المكرّمة تصبح عاصمة للثقافة الإسلاميّة وتتعاضد مع المدينة المنوّرة لاحتضان وإيواء أولى المدارس العلميّة الإسلاميّة التي شرّعت الطريق ونهجت المناهج وغرست البذرات التي انتجت ثمار المعرفة الإسلاميّة فيها وفي الأمصار الأخرى.

يَقدُم الوافدون إلى مكّة فيهدون إليها ثقافاتهم وعلومهم، وتهديهم مكّة بدورها علماً واسعاً ومعارف نافعة، ويجدها الناس قد هيّأت لهم جماعات من العلماء وجحافل من المثقفين يستجيبون لتطلعاتهم ويجيبون عن أسئلة الحجيج وتوقفاتهم، وينشرون معارفهم التي وصلوا إليها ببحثهم ونظرهم، كما ينقلون لهم ما بلغهم من فقه وثقافات الأقطار الأخرى. وهكذا كان علماء مكّة صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين علماء المسلمين على اختلاف بلادهم وأمصارهم.

وقد انتشر الوعي الثقافي والتطلّع العلمي في المجتمع المكّي فمسّ كلّ طبقات سكّانها، وبدت فيه ظاهرة دالّة على عمق المدينة المقدّسة بالثقافة والعلوم، ذلك أنّ مكّة عرفت منذ القرن الخامس الهجري عدداً كبيراً من العوائل العلميّة التي أخذت على عاتقها إبراز المكانة العلميّة لمدينتهم. وظلّت كلّ عائلة يتداول أبناؤها بنود المعرفة ويرفعون أعلام الثقافة أباً عن

---

197 – الترمذي: السنن، ١٠، ١١٤.

جد، فتعيش كلّ عائلة علميّة ما يُكتب لها من حياة، وقد يبقى بعضها منتجاً يزود المجتمع المكّي بالعلماء والمثقفين لسبعة قرون أو تزيد.

فمن العوائل العلميّة المكّية التي نذكرها للدلالة لا للإحاطة:

ــ بنو الطبري (الطبور): قرشيون وردوا من طبرة بفلسطين، وظهرت مكانتهم في العلم من القرن الخامس الهجري إلى الثالث عشر"[198]".

ــ بنو فهد (الفهود) هاشميّون وردوا من آصفون بمصر، ظهروا في القرن الثامن واستمرّوا إلى ما بعد القرن العاشر.

ــ بنو الفاسي: وهم حسنيّون وردوا من فاس، وامتاز منهم التقي بتآليفه في القرن التاسع.

ــ بنو القسطلاني: وردوا من توزر بالجريد جنوب البلاد التونسيّة في القرن السابع.

---

198 آل الطبري المشهورين بمكة فان كونهم سادات من نسل سيدنا الحسين السبط كاد أن يبلغ درجة القطع بما اختف به من القرائن وتداول مؤرخي مكة نسبهم مع كونهم بيت علم وشرف مشهورين في مشارق الأرض ومغاربها في الفضل . وهم اقدم ذوي البيوت بمكة . قال ابن فهد (٣) : اول من قدم مكة الشيخ رضي الدين أبو بكر محمد بن ابي بكر بن فارس الحسيني الطبري سنة ٥٧٠ هـ 1175 – 1174)م وكان دخول القضاء وامامة المقام الابراهيمي بينهم سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤– ١٢٧٥م) ولم تزل الإمامة بالمقام مخصوصة بهم وكل من كمل منهم باشرها ولايحتاج الى إذن جديد لوقوع الإذن المطلق لهم. ومازالت المناصب العالية عندهم يتلقونها كابرا عن كابر من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة . وكانت الخطابة من القديم تنتقل فى ثلاثة بيوت أقدمهم بيت الطبرى ثم الظهيريون ثم النويريون. وكانت لهم الألفة مع أشراف مكة وأتصلت بالصهارة . فقد كان الشريف عجلان صاحب مكة تزوج منهم سنة ٧٧٠ ه (١٣٦٨ – ١٣٦٩ م) زينب بنت الشهاب أحمد ابن الجمال محمد الطبرى.

ـ بنو الحطاب: وردوا من طرابلس الغرب خلال القرن العاشر.

ـ بنو علان: عُرف منهم علماء ومؤرخون خلال القرنين التاسع والعاشر"[199]".

ـ بنو النهروالي: أصلهم من عدن، ووردوا من نهروالة بالهند في نهاية القرن التاسع، وأنتجوا علماً إلى القرن الحادي عشر.

لقد ساهم أبناء هذه البيوتات العلميّة من المكّيين في إرساء قواعد مجد علمي تليد وشرف ثقافي فاخر بما ألّفوا من الكتب والمجاميع والرسائل، وبما ألقوا من الدروس وأداروا من الحوارات العلميّة والمناظرات، وبما جمعوا من شهادات وإجازات علميّة تقاطرت عليهم من كلّ مراكز المعرفة التي حوتها البلاد الإسلاميّة.

وإنّ من خير ما عرفناه من رحلات علميّة تستجيب لما نريد وتقدّم لنا عينة عمّا كان يحدث في الحرم المكّي خلال موسم الحجّ من حركة علميّة رحلة المحدّث الأندلسي محمّد بن رُشَيْد الفهري (ت٧٢١هـ / ١٣٢١م)، التي سجّل فيها صاحبها وقائع اللقاءات العلميّة التي حظي بها، وما جمعه

---

199 – بيت ابن علان : ونسبتهم إلى الصديق احتفت بقرائن كثيرة. وقد نظمها أحد أجدادهم وهو الشيخ أحمد شهاب الدين بن إبراهيم الذى كان من أئمة البيضوف بمكة فى القرن الحادى عشر وابن أخيه الشيخ محمد بن علان كان من أفراد وقته علما وفضلا وهو الذى اختاره لتدريس البخارى فى جوف الكعبة أيام عمارتها الأخيرة بعد أن هدم السيل جوانب منها سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣٠ – ١٦٣١م) .

من الكتب والأحاديث والمسائل المتفرقات ممّا قلّ أن اجتمع في غيرها من كتب الرحلات.

كانت رحلة ابن رشيد للحجّ سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، لم يُقِم بمكّة إلاّ أقلّ من عشرين يوماً، حيث دخلها في السادس والعشرين من ذي القعدة وغادرها قاصداً للمدينة-المنوّرة في الخامس عشر من ذي الحجّة. ورغم ذلك، فقد لقي الرجل من العلماء الكثير، وجمع من مروياتهم وكتبهم وإجازاتهم الكثير.

والعادة في المجتمع المكّي من حركة علميّة مباركة في موسم الحجّ. إنّه لا يكتفي القادمون بالأخذ عن شيوخ مكّة وعلمائها، بل يكون التلاحم والأخذ والعطاء بينهم وبين المكّيين وبين الوافدين من مختلف بلادهم واتّجاهاتهم. فيأخذ المغربي عن الهندي ويأخذ الأندلسي عن العراقي، ويأخذ الطرابلسي عن اليمني، ويأخذ المصري عن الشامي وهلمّ جرّاً ممّا يمثّل شبكة من الاتصال توصل الأطراف بالأطراف وتقرّب المتباعدين، ويلتقي بهذا الحرم الأمين العلماء المسلمون من مختلف أقطار الأرض.

فهذا ابن رشيد الفهري السبتي يلتقي في المركب البحري بالفقيه أبي عبدالله المرجاني التونسي (٦٣٣ ــ ٦٩٩هـ) وتنعقد المودّة بينهما بعد اتّفاقهما حول قضيّة فقهيّة عرضت في طريقهما إلى عرفات، فتوجّها إليها وقد تماسكت أيديهما. وناظر المرجاني فقيه مكّة المكرّمة رضي الدين العسقلاني في مسائل فقهيّة. كما يشاركهما في المركب البحري عالم فاضل وأديب زاهد من مدينة بسكرة هو أبومحمّد عبدالله البسكري الذي روى عنه ابن رُشيد أشعاراً وأحوالا وأخباراً.

ويلتقي ابن رشيد بالعالمين الأخوين رضي الدين العسقلاني وعلم الدين العسقلاني في منزلهما في الحرم الشريف، فكان منهما الأنس والضيافة والاحتفال بابن رُشيد، وكانا معه في طريقهم إلى دارهما فسمع عليهما أولا حديثاً مسلسلا هو: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء""[٢٠٠]". كما قرأ ابن رُشيد على رضي الدين العسقلاني المكّي كتاب الأربعين من رواية المحمّدين تخريج الحافظ الجيّاني. وقُرئ عليه وابن رُشيد يسمع بالحرم الشريف أبيات شوق قالها أحد المغادرين لمكّة بعد حجّهم. كما سمع منه مسلسل الدعاء.

ولقي ابن رُشيد الأندلسي شيخاً من دمشق هو أبو اليمن عبدالصمد بن عساكر"[٢٠١]" عند وروده على مكّة، فسمع عليه جملة من الكتب بعضها بمنزله بمنى يوم النحر، وبعضها بباب منزله بالحرم، وسمع منه أشعاراً

---

200 – رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْمُؤَدِّبُ ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَمُسَدَّدٍ ، عَنْ سُفْيَانَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، فِي الْبِرِّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي عُمَرَ ، عَنْ سُفْيَانَ ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

201 – عبد الصمد بن عبد الوهاب بن أبي الحسن محمد بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أمين الدين أبو اليمن بن عساكر الدمشقي نزيل مكة. حدث بالإجازة عن المؤيد الطوسي بـ «صحيح مسلم» وعن زينب السعدية بالرسالة لأبي القاسم القشيري. ومن شيوخه بالإجازة أبو روح عبد المعز الهروي وعبد الصمد الحرستاني وعبد الرحمن بن السمعاني ومحي الدين ابن العربي. وسمع شرح السنة للبغوي على أبي المجد محمد بن الحسن القزويني وعلى جده السن بالسيرة الهشامية بإجازته من ابن رفاعة. وسمع على الحسين بن الزبيدي «صحيح البخاري» وحدث به عن هذا سماعا وعن فضل الله بن عبد الرحمن المنهبي وجده أبي البركات الحسن سماعا عليه والحسن الزبيدي إجازة منه ومن المنهبي بسماعهم من أبي الوقت إلا جده فاجازة. وكان ذا خير وزهد وفضل وشعر حسن جاور بمكة نحو أربعين سنة. وتوفي في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وستمائة بالمدينة النبوية ومولده سنة أربع عشرة وستمائة. وأخذ عن الموفق بن قدامة وأجاز له عبد الرحيم بن السمعاني والشيخ محي الدين ابن العربي

بباب الصفاء وبالمسجد الحرام، كما أجاز لعلماء من تونس ومن الأندلس تجاه الكعبة الغراء.

ولقي ابن رُشيد في حجّه عالم مكّة وفقيهها المحبّ الطبري (ت٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) الذي يعتبر قمّة علمائها في وقته حيث تعدّدت اختصاصاته، فألّف الكتب الكبيرة في التفسير والحديث والفقه والتاريخ. قابله ابن رُشيد بالحرم الشريف وطلب منه السماع والإجازة فأجاز له بخطّه كتباً كثيرة منها، كتابات الطبقات لابن الجوزي، وروى له من أشعاره التي يتشوّق فيها للبيت والحرم.

ولقي ابن رُشيد بمكّة من علماء بغداد شيخين هما عبد الرحيم بن الزجاج"[٢٠٢]" وابن أخيه عبد الحميد اللذين كانا يدرّسان أيّام الحجّ كُتب الحديث. وسمع عليهما بين الحجر الأسود وزمزم جزءاً من حديث أبي الحسين بن العالي.

ولا يعدم طالب العلم في مكّة مكاناً يجد فيه علماً. فقد لقي ابن رشيد أحد العلماء الوافدين نسي اسمه وليس من عادته أن ينسى فهو الضابط المتحري، ولعلّ ذلك لكثرة من لقي من الناس عرف الرجل العالم في المطاف فقام بينهما حوار وهما يطوفان حول الحكمة من مشروعيّة الطواف على يسار البيت العتيق.

---

202 –هو عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس، الشيخ الصالح أبو محمد بن الزجاج عفيف الدين العلثي، بالثاء المثلثة، ثم البغدادي الحنبلي الأثري، ولد سنة اثنتي عشرة وست مائة وتوفي سنة خمس وثمانين وست مائة، وسمع من ابن صرما والفتح بن عبد السلام وعبد السلام العبرتي وابن روزيه وجماعة، وحدث بدمشق لما قدمها حاجاً، وكان محدثاً عالماً ورعاً.

وإذا كان الحجّ في بعض جوانبه لقاءات ثقافيّة ومجتمع علوم، فإن تلك العلوم بأنواعها والمعارف بإشراقاتها لا تصيب محلّها ولا تظهر فائدتها إلاّ إذا توفّرت لها مجتمعات سليمة المسالك طيّبة المقاصد، معتمدة على قواعد من العدل وحسن التعامل، منطلقة من مبادئ الأخوّة بين المسلمين والمساواة بينهم، مؤسسة على أنّهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعت له بقيّة الأعضاء.

ولقد حرص التشريع الإسلامي على أن يجعل الحجّ موعد لقاء المسلمين لتكريس قواعد اجتماعيّة تكون ذات أثر مفيد في مجتمعاتهم على اختلاف أنواعها. ففي الحجّ تربية إيمانيّة للإنسان، إذ هو يدفعه إلى ربط الصلة بينه وبين ربّه، ويقوده إلى حسن الاعتقاد وحسن العبادة وتذوّق حلاوة الإيمان مع عمق مشاعره الجيّاشة وارتفاع أصوات الاستجارة والدعاء والاستغفار. وفي الحجّ، تجرّد عن زخرف الدنيا وزينتها ليوجه الحاج إلى الخشوع الكامل لله فيعبده العبادة الكاملة. وفي الحجّ، ابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، وفي ذلك ابتعاد عن كلّ ضلال مضلّ، وكلّ طغيان أعمى، وكلّ نزوات حمقاء. وفي الحجّ وحدة تجمع مختلف أجناس المسلمين والوافدين من عديد أقطارهم، ففيه وحدة مساواة بين مختلف ألوان المسلمين ودرجاتهم الاجتماعيّة والماديّة، فلا فرق بين غني وفقير، ولا بين قائد وأجير، ولا بين خامل وأمير فكانوا جميعاً عباد الله وإخواناً. يكون لباسهم واحداً، ونداؤهم بالتلبية واحداً، وقيامهم بشعائرهم واحداً، وتنسى كلّ طبقة ما كانت فيه قبل قدومها خيراً كان أو شرّاً"[٢٠٣]".

---

[203]– للاستزادة فى ذلك راجع : ابن رشيد السبتى ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة و طيبة المعروفة ب : رحلة ابن رشيد السبتي (ت ٧٢١

ثانياً : بالنسبة لأوقاف الحرمين :

وكانت أوقاف الحرمين تشكل مورداً اقتصادياً له أكبر الأثر في إنعاش الحياة العلمية والاجتماعية في المدينتين المقدستين، وبدأ الإهتمام بالحرمين الشريفين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت 23هـ/ ٦٤٣) الذي وقف الكثير من الأراضي التي فتحت بالقوة، وأصبحت تعامل معاملة الوقف تماماً، وخصص ريعها لعموم منفعة المسلمين، ووفق ما يجتهد حاكم الدولة الإسلامية .

وقد استمر خلفاء بني أمية بالوقف على الحرمين الشريفين، وتوفير المياه الصالحة للشرب والإستعمالات البشرية، ابتداءً من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ679 /م) وطوال العصر الأموي؛ إذ إن عامة المقتدرين من الصحابة قد باشروا وقف أموالهم، أو جزء منها على الحرمين الشريفين. كما أبدى خلفاء بني العباس اهتماماً كبيراً بالأوقاف وتنميتها وتنوعها. فأبو العباس السفاح (ت ١٣٦هـ/ ٧٥٣م)، افتتح أعماله في نطاق البر والأوقاف، بأن أمر بضرب المنار على طريق الحج الذي يربط الكوفة بمكة المكرمة والمدينة المنورة. كما يُذكر أن أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ/ ٧٧٤) كان قد وقف الأوقاف على أهل المدينة المنورة؛ وسار على نهجه بقية الخلفاء العباسيين. وكانت هناك منافسة حادّة بينهم وبين الأمراء من الأسرة العباسية في أعمال البر وإشاعة الأوقاف على الحرمين الشريفين، حيث لم يقتصر أثرها على

هـ)، الجزء الخامس ، تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة ، نشر دار الغرب الاسلامي ـ رابط مباشر ، ص ص ١٢٩-٢٦٢ .

الحج والحجاج وسكان الحرمين الشريفين، بل شمل التعليم، في مراحله المختلفة، وأهدافه المتعددة، والصحة العامة، وما الى ذلك .

في العصرين الأيوبي والمملوكي، تجلى هذا الإهتمام فيما يرسل مع قافلة الحج المصرية لصيانة وتجميل الحرمين وإدارتها، وما كان يرسل اليهما في صورة مخصصات للأهالي والمجاورين، وغير ذلك من النفقات، مثل كسوة الكعبة، وكسوة الحجرة النبوية المشرفة، وخدمة الحرمين، وما إلى ذلك . من أبرز تلك الأوقاف وقف السلطان برسباي (ت ٨٤١هـ/ ١٤٢٧م)، ووقف الدشيشة الكبرى"[٢٠٤]"، الذي يعد من أكبر الأوقاف المخصصة لأهالي الحرمين الشريفين في مصر.

بعض الأمراء والأعيان، في العصر العثماني، أضافوا للدشيشة الكبرى أيعاناً موقوفة. ومن أمثلة ذلك أن الأمير فرحان آغا وزوجته السيدة زليخا، وقفاً بالقاهرة عقاراً يبلغ ريعه مائتين وسبعين نصف فضة سنوياً. كذلك خصصت السيدة خاتون بنت عبدالله وقفاً آخر بلغ ريعه مثل ذلك. وهناك الكثير من الوثائق التي تشير الى اتساع وقف الدشيشة الكبرى في العصر العثماني .

لم يقتصر الأمر على السلاطين في اهتمامهم بالحرمين الشريفين، بل سار الأمراء على سيرة سلاطينهم وحرصهم على ذلك. ومن أمثلة ذلك وقف الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير شمس الدين علي الخزعلي، الذي وقف عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، بعض الأوقاف وجعل ريعها وقفاً على فقراء الحرمين الشريفين والمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف

---

204 – ويقصد بالدشيشة، القمح الذي يرسل سنوياً الى الحرمين فيعمل طعاماً للفقراء، يجرش ويدش ويطبخ ويفرق عليهم .

بالسوية بينهما. وكذلك الأمير يشبك بن مهدي الدوادار"[٢٠٥]" الذي وقف عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وقفاً خصصه لفقراء ومساكين المدينة المنورة .

ونتيجة لازدهار الأوقاف في العصر المملوكي تنوعت الأعيان الموقوفة؛ وكذلك الفئات الموقوفة عليهم. وكان من أهم ما وقف في هذا العصر الأراضي الزراعيّة، والعقارات، التي شملت: المدارس، والقصور، والدور، والفنادق، والعقارات، والربط، والخانات، والسبل، وأحواض الدواب، ومعاصر الزيت، والحمامات، والطواحين، والأفران، ومخازن الغلال، وغيرها مما ورد في وثائق الوقفين في ذلك العصر. فلم تنته حقبة المماليك، إلا كان ما يقارب نصف أراضي مصر أوقافاً، بحيث كان نسبتها عند دخول العثمانيين اليها، حوالي عشرة قراريط من ٢٤ قيراطاً، الى جانب مباني القاهرة والفسطاط التي كان أكثرها أوقافاً .

---

205 – أصبح الأمير يشبك بن مهدي الدودار مملوكا وهو في الثالثة عشرة من عمره، وأعطي لذلك نعت الصغير. وكان مجهول الأصل فأعطي اسم النخاس أي تاجر الرقيق الذي اشتراه، مهدي. وكان أولا مملوكا لدى السلطان الظاهر جقمق، وتولى عدة مناصب في عهده؛ وكذلك في عهد السلطان الأشرف إينال. وفي عام ٨٧١هـ / ١٤٦٦م، أثناء حكم السلطان خشقدم، عين كاشفا للصعيد وأميرا لعشرة. وفي عهد السلطان قايتباي عين في منصب دوادار كبير أو المستشار؛ ويكون الأمير يشبك بشغله ذلك المنصب الرفيع قد قفز عدة مراتب في السلم الوظيفي المملوكي. ثم عين بعد ذلك وزيرا، وأصبح مسئولا عن الشئون المالية وقاد هذه الأمور بحكمة وخبرة. وكان الأمير يشبك مختصا بالتصرف مع أولئك الذين يحاولون الاستيلاء على أراضي الدولة المملوكية. وقد نجح في إخماد الاضطرابات الداخلية. واضطلع بإدخال تحسينات ملموسة؛ فأعطى اهتماما خاصا للطرق والأسواق وإصلاح المباني وقد عرف بشجاعته. وقد كان الأمير يشبك كريما مع العلماء، وخاصة الفقراء منهم؛ كما أعتق عددا كبيرا من مماليكه، ومنحهم سبل العيش الرغد الحر. والأمير يشبك مات مقتولا في عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م.

اتسع نطاق الوقف في عصر الدولة العثمانية، وذلك لإقبال السلاطين والأمراء والأعيان عليه، وأصبحت له تنظيمات خاصة به، وصدرت تعليمات متعددة لتنظيم شؤونه، وبيان أنواعه، وكيفية إدراته . بالإضافة الى ذلك فإن الأمراء والأعيان اتبعوا سلاطينهم، فوقفوا الكثير من الأراضي الزراعية والعقارات المبنية، وخصصوا ريعها لأهالي الحرمين الشريفين. من أبرزها وقف علي باشا السبكي (ت ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م)، الذي خصص في ريع وقفه ٧٥٠٠ نصف فضة لأهل مكة المكرمة، و١٢٥٠٠ على أهل المدينة المنورة. الأمير عبدالرحمن كتخذا (ت 1190هـ/ ١٧٧٦م) الذي يعد من أهم الأمراء الذين اهتموا بالمقدسات الإسلامية، كان يرسل سنويا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ٢٠٦٩٨ نصف فضة، مع أمير الحاج المصري .

من خلال وثائق الوقف، فإن أغلب الأقاليم التي اشتهرت بأوقاف حكام الدولة الإسلامية، على مر العصور، هي مصر والشام وتركيا والحجاز؛ بالإضافة الى أوقاف دول اخرى في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، منها اوقاف الحرمين الشريفين في اليمن، حيث لا توجد منطقة من مناطق اليمن إلا وفيها أوقاف للحرمين. وأكثر هذه الأوقاف في لواء تهامة ولواء إب. وكان لها إدارة مستقلة عن سائر الأوقاف في ألوية اليمن وأقضيته ونواحيه، يجمعون أثمان حاصلات تلك الأوقاف، ثم يرسلونها الى ناظر أوقاف الحرمين في صنعاء، وترسل سنوياً الى الحرمين. وقيل: إن الوالي العثماني، حسين باشا اعتنى بتلك الأوقاف، وأصبحت ترسل مع قافلة الحاج اليمني .

إسهامات الوقف : أسهمت الأوقاف إسهاماً فعالاً في تدعيم الحرمين إصلاحاً وتعميراً، كما أسهمت تعليماً، حيث ساعدت في إيجاد جيل من العلماء والأئمة والخطباء والمحدثين والمؤذنين .وقد وفرت الأوقاف جل احتياجاتهم بما خصص من ريعها. وتوافر وسائل المعيشة في المدينتين المقدستين كان سبباً رئيسياً في أن تزدهر الحركة العلمية فيهما، تؤكد ذلك الكثير من الوثائق .

من الأغراض التي شملها الوقف، الصرف على الخدمات العامة في الحرمين الشريفين .فقد أحاط سلاطين وحكام الدول الاسلامية الخدمات العامة بالحرمين الشريفين بعظيم العناية وتعددت الأوقاف التي تعود بالخير على النواحي العامة للمقيمين والوافدين الى الحرمين. من ذلك، الوقف على البيمارستانات، والرعاية الصحية، والرباطات، والمدارس، والمدرسين، وطلاب العلم، والمنقطعين، في اجرة حملهم وإطعامهم وكسوتهم، وعلى تكفين الموتى. ولم يغفلوا توفير المياه، فوقفوا على اصلاح العيون، وعلى اجرائها، وعلى الأسبلة، وغيرها من الخدمات العامة .

وبعد وقف السلطان الأشرف شعبان، الذي وقفه عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، خير مثال على وقف الخدمات العامة، إذ أنه تناول الصرف على الخدمات العامة بالمدينتين المقدستين، وشمل الكثير من المناشط العلمية والصحية وغيرها .

بالإضافة الى ذلك، كان هناك ما ينفق منها على الأشراف، أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث شكلت الأوقاف مورداً مهماً في الإنفاق عليهم ولتصريف شؤون امارتهم. يضاف الى هذا ما نالوه من الهبات

والأموال في صورة إعانات مالية، أو عينية، فالأموال التي كانت تصل اليهم من السلاطين والملوك والأمراء وكبار رجال الدولة من مصر ومن سائر البلاد الإسلامية كانت كبيرة .

أدت الأوقاف رسالتها، وحققت الهدف منها، في كل نواحي الحياة، إذ عملت على رفع مستوى المعيشة في المدينتين المقدستين، ووفرت وظائف كثيرة، وأنعشت الأسواق، وخفضت الأسعار، وعم الخير أهالي الحرمين والمجاورين بهما والوافدين إليهما، وخاصة الفقراء، والعاجزين، والمنقطعين، والأرامل واليتامى والمساكين .

إضافة الى ذلك، ساهمت الأوقاف في إثراء الحياة العلمية في المدينتين المقدستين، حيث أن العلماء والطلاب كانوا يجدون في الأموال والمؤن وصدقات أهل الخير والأوقاف الدائمة والمرصودة التي كانت محبوسة عليهم، ما يلبي مطالب حياتهم ويساعدهم على التفرغ العلمي. وقد اجتذب الحرمان الشريفان الكثير من العلماء، لا سيما من عصفت بهم الفتن في بلادهم، ولم يجدوا ملاذاً يؤويهم سوى مكة المكرمة، او المدينة المنورة، ينشدون فيهما الأمن والإطمئنان، بعيداً عن الفتن والإضطرابات. وبهؤلاء العلماء حدثت نهضة علمية واسعة، ما كان لها أن تتم إلا بالأوقاف والأموال التي كان الإنفاق فيها على التعليم مطلباً رئيسياً"[٢٠٦]".

206- مها اليزيدي ، أوقاف الحرمين الشريفين: أهميتها ودورها ، مجلة الحجاز ، العدد ٨٩ .

ثالثاً : المجاورون :

دائماً كانت لمكة المكرمة المكانة الخاصة التي كانت تتمتع بها لدى المسلمين فهي محجهم ومهوى افئدتهم ولذلك اتجهت اليها اعداد كبيرة من المسلمين حجاجا وطلاب علم وغير قليل منهم فضل الاقامة بها لقضاء فترة صفاء روحي في جوار بيت الله وعلى ارضها المقدسة ومن هنا نشأ ما عرف في التاريخ الاسلامي باسم المجاورة ومنهم من قصدها لاداء الفريضة والمكث فيها مدة قصيرة ولكنها حافلة بلقاء العلماء. ولا شك ان المجاورين ليسوا من بلد واحد وانما من اقطار مختلفة من العالم الاسلامي مثل المغرب ومصر والشام والعراق واليمن وغيرها ، وقد كان المجاورون من اجل طلب العلم كثيرين وقد الف في المجاوريين مؤلفات عديدة منها ما جمعه ، احمد بن عبدالله بن محمد بن ابي بكر الطبري المكي الشافعي (ت٦٩٤هـ) وسماه "معجم المجاورن من الصحابة" واستمرار المجاورة لبيت الله الحرام ولمكة المكرمة الى عهد قريب من طلاب علم وعلماء ، وكان المجاورون اكثر تواجدهم في بيت الله الحرام ملازمين لحلقات العلم ينهلون من معينها الذي لا ينضب ومستمتعين بالصلاة والطواف وطلب العلم ، وكان كل شيخ يعطف على طلابة من المجاورين الذين لايسألون الناس الحافاً فيجدون الرعاية والعناية من العلماء والميسرين من اهل البلد الحرام فكانوا منعمين مكرمين ، وقد ادرك الكثير من المجاورين من طلاب العلم من الاخوة اليمنيين والصوماليين والاحباش ممن يطلبون العلم في الحرم المكي ويعملون في نظافة المسجد الحرام مستعينين على ما يحصلوه من مال على معيشتهم بجانب طلبهم للعلم الشرعي بالمسجد الحرام وبالمدرسة

الصولتية وبدار الحديث وبدار العلوم وبمعهد الحرم المكي وغيرها من المدارس التي تعنى بالعلوم الشرعية واللغة العربية"[٢٠٧]".

وقد صنف ابن بطوطة المجاورين عندما قصد مكة المكرمة كما قال :

فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي"[٢٠٨]"، كثير الطـــواف آنـــاء الليـــل

207– وقد تغيرت الامور في وقتنا الحاضر فاصبح امر المجاورة يخضع لانظمة يجب التقيد بها ومراعاتها ، اقتباس من كتاب "مكة المكرمة خلال قرن من الزمان " .

208 – عفيف الدين أبي السّعادات، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني الشافعي، المؤرخ المسلم، صاحب كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان. ولد في عدن باليمن حوالي سنة ٦٩٨هـ، ونشأ فيها، فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون، وأخذ عن عدد من العلماء، منهم: الذهبي بن النضال، والشرف الحرازي، وغيرهم. حج سنة ٧١٢هـ، ثم عاد إلى اليمن، وصحب الإمام علياً المعروف بالطواشي، وانتفع به، ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨هـ، وأقام بها وتزوج، وسمع علي الرضى الطبري، والنجم الطبري، وغيرهما. رحل إلى الشام سنة ٧٣٤هـ، وزار القدس والخليل وأقام بها عدة شهور، ثم زار مصر وتنقّل في مدنها، واجتمع بعدد من العلماء وأخذ عنهم، وكان يحج سنوياً طول فترة غيابه، ثم عاد إلى مكة وأقام بها. وقد جاور بالمدينة المنورة مراراً، وطالت إقامته في إحداها، وتزوج بها. تصدى للتصنيف والإقراء والاسماع، وأخذ عنه عدد من العلماء منهم: الزين العراقي، والجمال بن ظهيرة. وكان كثير العبادة والورع، منقطع القرين في الزهد، وافر الصلاح والعزلة، شديد الإيثار للفقراء، وكان عارفاً بالفقه والأصول وعلوم العربية، والفرائض والحساب، وغيرها من فنون العلم، وقد أثنى عليه كثير من العلماء والأدباء، منهم: الإمام بدر الدين حسن بن حبيب أديب حلب، وجمال الدين الإسنوي في "طبقاته" وغيرهما. وكانت وفاته بمكة المكرمة سنة ٧٦٨هـ، ودفن بمقبرة المعلاة، بجوار قبر الفضيل بن عياض.

وأطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا، أو ينام يسيرا، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح. وكان متزوجا ببنت للفقيه العابد شهاب الدين بن برهان، وكانت صغيرة السن. فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته.

ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوني. كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى، وجاور بالحرم الشريف. وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان: مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: عمرة في رمضان تعدل حجة معي. ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين، توفي بمكة. ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف، أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها. ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب. والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرىء مجيد ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل

إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي.

أثر الرحلة المكية على الحياة العلمية بمكة :

"الحركة العلمية والتعليم في مكة" بصورة عامة وجذورها تتمثل فى دور المسجد الحرام مقصد كل الرحالين ، إذ كان عامرًا بحلقات التدريس التي كان أكابر الشيوخ فى العالم الإسلامى يعقدونها في جنباتـــه، ومـــزدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، من أمثال برهان الدين العجمى الواعظ (٢٠٩)، كان ينصب له كرسى تجاه الكعبة المشرفة فيعظ النـــاس

---

209 – هو الإمام إبراهيم بن محمد بن خليل برهان الدين،أبو الوفاء الطرابلسي المعروف بسبط ابن العجمي، ولد بالجلوم حارة من حارات حلب في الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، مات والده وهو صغير وكفلته أمه،كان حريصاً على طلب العلم وشغوفاً به، فقرأ القراءات والتجويد وفنون الحديث والفقه والنحو واللغة عن عدد من العلماء في دمشق ومصر وحلب، كان رحمه الله رحالة في طلب الحديث وسماع الأسانيد فرحل وسمع في عدة بلدان منها بيت المقدس وحماة وحمص وبعلبك ودمشق والخليل ونابلس والرمله ومصر، وشيوخه بالسماع قريب من المائتين غير مشائخه بالإجازة، قال عنه ابن حجر "بأنه أحق الناس بالرحلة إليه لعلو سنده حساً ومعني، ومعرفته بالعلو فناً فناً" توفي في سادس عشر شوال سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بحلب، وصلي عليه بين صلاتي الظهر والعصر في الجامع الكبير،له العديد من المؤلفات منها مخطوط أو مطبوع. يقال له: البرهان الحلبي، وسبط ابن العجمي. وهو والد المؤرخ أحمد بن إبراهيم (٨٨٤) الآتية ترجمته. رحل إلى دمشق وفلسطين ومصر والحجاز، وأخذ عن علمائها. من كتبه (نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس – خ) مجلدان، و (نقد النقصان في معيار الميزان) و (التبيين لأسماء المدلسين – ط) رسالة، و (تذكرة الطالب المعلم بمن يقال إنه مخضرم – ط) كراس، و (الاغتباط بمن رمي بالاختلاط – خ) [ثم طُبع] و (المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا – خ) و (بل الهميان في معيار الميزان) ذيل لميزان الذهبي، و (نهاية السول في رواة الستة الأصول) و (تعليق على

ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ، ولهذا فقد كان للمسجد الحرام دور بارز في رقي الأمة الإسلامية وتطورها في مختلف المجالات الدينية والفكرية والحضارية منذ فجر الإسلام، الأمر الذي جعل مكة المكرمة تحتل مكانة تبوئها لأن تصبح مركز علمي بارز في الحياة العلمية الإسلامية.

ونشطت "المؤسسات التعليمية والعلمية"، فأكدت على أن المسجد الحرام لم يكن وحده ملتقى العلم والعلماء والأساتذة والطلاب، بل كانت هناك أماكن أخرى يمكن اعتبارها مؤسسات تعليمية أدت دورها في الحركة التعليمية في مكة المكرمة، ومنها المساجد والكتاتيب والأربطة([٢١٠]) التي بدأ

سنن ابن ماجه) و (التلقيح) في شرح صحيح البخاري، أربع مجلدات و (مختصر الغوامض والمبهمات – خ) بخطه. اختصر به كتاب (الغوامض) في الأسماء الواقعة في الأحاديث، لابن بشكوال : نقلا عن : الأعلام للزركلي .

210 – الاربطة، فالرباط في الأصل بيت المجاهدين ، ولكن السادة الصوفية ، استعملوا الكلمة فيما بعد بمعنى الخانقاه ، على أساس أنهم كانوا يخوضون جهادا روحيا . كانت الاربطة تغذي الوافدين إليها بالتعليم الديني ، وتوفر لهم غذاء روحيا ، وفي العصر العثماني أصبحت كثير من الاربطة ملاجىء للفقراء من نساء ورجال يقدم لهم فيها الطعام وتصرف المساعدات المختلفة . وكانت الاربطة مراكز للتعليم الصوفي ، بالإضافة إلى مهامها الاجتماعية والسياسية ، وكان في بعضها مكتبات وفي حين كان السادة الصوفية يقيمون في الخوانق بصورة دائمة أو شبه دائمة ، كان زوار الاربطة يقيمون فيها لمدد قصيرة نسبيا ، غير أن التمييز بين الخوانق والربط لم يكن متيسرا في كثير من الأحيان،وقبل ظهور الأربطة بمكة المكرمة كانت هناك مايسمى بالدور والرباع وتقوم بدور الرباط الى حدما ،ومن اشهر الدور والرباع:١-ربع آل أبي العاص بن أمية ٢-رباع بني نوفل بن عبدمناف عند العلم الاخضر بالمسعى ٣-ربع آل دواد بن الحضرمي ٤-رباع بني عامر بن لؤي ٥-دار سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه٦-دار العباس رضي الله عنه ٧-دار الأرقم بن ابي الأرقم ٨-دار العجلة ،وفي عام ٣١٢هـ ظهر في مكة المكرمة ولأول مرة أسم جديد يعرف بالرباط (رباط السدرة ويقع بين باب السلام وباب النبي صلى الله عليه وسلم

إنشاؤها عام ٤٠٠هـ بمكة قبل المناطق الأخرى والذى كان على هيئة فناء مكشوف فى وسطه وتدور حوله مشتملات الرباط ، ثم ظهرت فى هيئة طوابق سكنية فى أواخر العهد العثمانى(٢١١) ، والمدارس قد عرفت بمكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجرى ، وأقدمها مدرسة الأرسوفى ، ثم اتسعت حركة العلم فشملت مؤسسات كثيرة أخرى، ثم أوضحت نظام الدراسة في تلك المؤسسات، فهناك دراسة نظامية في المدارس كما فى المدرسة الصولتية(٢١٢)، ودراسة وسط بين الانتظام وعدمه وتتم في

---

211 – حيين عبد العزيز حسين الشافعى ، الرباط فى مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكى : دراسة تاريخية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ١٢ وما بعدها .

212 – المدرسة الصولتية في مكة المكرمة هي واحدة من أقدم مدارس التعليم النظامي بالمملكة العربية السعودية. أسس هذه المدرسة الشيخ محمد رحمت الله الذي جاء إلى مكة المكرمة عام ١٢٧٤هـ من الهند، وأذن له بالتدريس في الحرم المكي، ولم تكن هناك مدرسة منهجية في مكة فأسس أول مدرسة على نفقته الخاصة وبمفرده في المسجد الحرام، إلا أن وجود مدرسة في محيط الحرم لايؤدي الغرض المنشود من حيث تنظيم الدراسة كما كان يتطلع الشيخ محمد رحمت الله وذلك على غرار مدارس الهند الإسلامية العريقة وغيرها من المدارس الإسلامية المنتشرة في ذلك العهد في بعض البلدان العربية، وقام أحد أمراء الهنود المهاجرين والمقيمين في مكة المكرمة وتبرع ببعض الأماكن من داره وانتقلت مدرسة الشيخ رحمت الله إلى هذه الدار مشكلة نواة مدرسة مستقلة على نهج جديد، والتحق عدد كبير من الطلبة من أهل مكة المكرمة حتى ضاقت أماكن الدار بالطلاب فعاد الشيخ ونقل نصف طلابه إلى المسجد الحرام، وترامت أخبار هذه المدرسة الجديدة وعلمت بالأمر امرأة ثرية من الهند تسمى صولت النساء كانت قد قدمت في موسم الحج عام ١٢٨٩هـ وأرادت إقامة رباط فاستشارت الشيخ رحمت الله في ذلك فعرض عليها بأن مكة مليئة بالأربطة ولكن ليس بها مدرسة يتعلم فيها أبناء المسلمين، فحبذت الفكرة، وتبرعت بقسط وافر من مالها الخاص وشيدت المدرسة في حي الخندريسة بحارة الباب جوار المسجد الحرام في عام ١٢٩٠هـ، وانتقل الطلاب ودرسوا

الأربطة والزوايا، ودراسة في مقامات المذاهب الأربعة، ثم المساجد والكتاتيب والأربطة التى يقصدها المجاورون كرباط السدرة ورباط ربيع الذى عاش فيه الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن على بن رزق الله الأنجرى ، وقال عنه ابن بطوطه : إنه من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة سنين وبها وفاته. كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة. ومتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا. وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة، وسكانها الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا ويذرون له النذور، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه. ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهو يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط. ويوصلون ذلك إليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان. ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح.. ويستطرد ابن بطوطة حاكياً : أتي يوما غلمان الأمير أبي نمي صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر، فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها. واتصل الخبر بالأمير أبي نمي، فأتى باب الرباط بنفسه، واعتذر إلى المساكين الساكنين به، واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده

مدرسة الشيخ رحمت الله إلى هذه البناية الجديدة، وتخليداً لذكرى هذه المرأة واعترافاً لجميلها أطلق المؤسس اسم الصولتية على هذه المدرسة.

فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت ممـا أصـابها، ولـم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير"[٢١٣].

وإلى جانب هذه المؤسسات التعليمية وجدت الدروس الخاصة التـي دأب عليها بعض الأمراء المسلمين وبعض التجار الموسرين، إذ كانوا يدفعون لمن يقوم بتدريسها أجرًا معلومًا، مما ساعد على نشر العلم بين المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها.

أما "رجال الحركة العلمية" أو الأساتذة الذين تصدوا للتدريس، والطلاب، وهم من طبقتين: طبقة تدرس في المسجد الحرام، وطبقة في المـدارس المستقلة، وأن هؤلاء المدرسون لم يكونوا من بلد واحد وإنما جاءوا مـن مختلف البلدان، والمكانة الاجتماعية التي احتلها العلماء فـي المجتمـع المكي والاحترام والتبجيل كبيرة ، نظرًا لأنهم ورثة الأنبياء، والأعمـال التي مارسوها (خلاف التدريس) خلال فترة الدراسـة، ومـن أهمهـا: الإفتاء، التجارة، العطارة، عقـد الأنكحـة وتوثيـق العقـود، الفراشـة والحجابة، الأذان في المساجد، مع التطرق إلى مدرسي المسجد الحرام.

ومن الأساليب التي أتبعت في التعليم الرحلة في طلب العلم، والإجـازات العلمية([٢١٤]) التي تحتل مكانة خاصة في عملية التعليم عند المسلمين، إذ

---

213 – ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ .

214 - هي النظام الأساسي للرحلة في البحث عن المعرفة التي وضعت في وقت مبكر عن طريق طلاب علم الحديث، بما فيها السفر إلى شخصيات محددة (الشيوخ)، وعلى وجه الخصوص من أقدم وأشهر المحدثين، ولكي يسمعون من أفواههم الأحاديث الخاصة بهم والحصول على "الإذن" أو "الإجازة" لنقل هذه الأحاديث وذكر أسمائهم في الإسناد. وعندما يستخدم "نظام الإجازة" هذا اسم الشخصية بدلا من المؤسسات كالشهادات الحالية من المعاهد والجامعات فإنه لا يخدم فقط علم الحديث، ولكن أيضا يساعد على نقل النصوص ومن أي نوع، كالتاريخ، والقانون، والفقه واللغة، والأدب والتصوف وغيرها من العلوم. إن الإسناد من مخطوطة طويلة وإن كان الحديث قصيراً يجب أن يظهر بشكل مثالي التواصل عن طريق الفم، ووجها لوجه، ونقل النص من المدرس إلى الطالب الذي يجعل

كان المتعلمون منهم يحرصون على الفوز بها تتويجًا لجهودهم في طلب العلم، لتكون دليلاً على بلوغهم مرتبة علمية سامية تؤهلهم للتدريس، بل كان يحرص على كسبها الكبير والصغير كشهادة يفخر بها الإنسان بين أقرانه وأترابه، وراجت في مكة العلوم ، وأقبل عليها الناس خلال حقبة الدراسة على اختلاف أنواعها، كالعلوم الدينية (التفسير، القراءات، الحديث، الفقه)، والعلوم اللغوية (النحو، الأدب، اللغة) والتاريخ وعلوم أخرى كالهندسة والحساب والطب والفلك.

أثر الرحلة المكية على الحياة الاجتماعية والتركيبة السكانية :

وعلى مرّ القرون ازداد الوافدون والمجاورون زيادة كبيرة، بينما قل عدد الأهالي الأصليين، لكن المحور الذي تدور حوله حياة أهل مكة والواردين إليها هو (موسم الحج)، فلولا المقدسات ما أمكن تصور ازدهار مدينة مثل مكة في تلك القيافي القاحلة عبر القرون الطوال، بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، فتحققت دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام لهذه المدينة المباركة "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"([٢١٥]).

وسكان مكة الأصليون من قبيلة قريش، بالإضافة إلى بعض القبائل والعشائر التي استقرت في جوار قريش، وقد زحف معظم القرشيين مع الفتح الإسلامي إلى الشام والعراق ومصر والمغرب وغيرها واستقروا فيها، ولم يبق من القرشيين الأصليين في مكة إلا قلة منهم، مع بعض

النص المكتوب أكثر وثوقا. في "الإجازة" الرسمية والمكتوبة يمنح المعلم الشهادة تماما كما هي اليوم بالإضافة إلى الإسناد وما يحتويه عادة من نسب العلماء بالإسناد له أو لها وهكذا لعدد كبير من العلماء إلى النبي عن طريق الصحابة والتابعين، أو ربما إلى مؤلف لكتاب معين.

[215] – سورة إبراهيم : ٣٧ .

الأسر والعشائر البدوية، التي استقرت بجوار مكة، ويُعَدُّ المكيون هؤلاء الربع أو الثلث من مجموع القاطنين بمكة.

ومن سكان مكة الأصليين – كذلك – بعض الأسر، مثل: آل الشيبي، كما برزت في مكة بعض العائلات في المجالات العلمية والاجتماعية، وهي ليست في أصلها مكية، ولكنها استقرت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. ومن هذه العائلات: النويريون، والظهريون، والطبريون، والفاسيون، الذين تقلدوا وظائف دينية، وبرزوا في المجالات العلمية، حتى أصبحوا جزءًا من المجتمع المكي – كما سبق توضيح ذلك .

إضافة إلى ذلك وجد الوافدون أو المجاورون، وهم أولئك الذين قدموا من جميع بقاع العالم الإسلامي بقصد الحج واستقروا بمكة على مرِّ القرون، واختلطوا بسكانها واندمجوا في المجتمع المكي، وصاروا يُكَوِّنُون جزءًا من هيكلها الاجتماعي، إلا أنهم ليسوا في الأصل من طبقة واحدة، فمنهم أعيان وعلماء وطلبة علم، ومنهم التجار، الذين قدموا للتجارة بمكة، وبقوا فيها، وتزوجوا واستقروا، ومنهم من وفد للاستقرار طلبًا للعبادة بجوار البيت الحرام، أو المسجد النبوي، ومنهم المتصوفة والزهاد، وهم ينتمون إلى جنسيات مختلفة.

لم يكن المجاورون عنصرًا سلبيًا في المجتمع المكي يتلقون التأثير من المحيط الجديد الذي انتقلوا إليه فحسب، بل كانوا يعيشون في صميم المجتمع، فيؤثرون ويتأثرون، ولا شك أنهم حملوا معهم كثيرًا من عاداتهم وتقاليدهم، ونشروها دون قصد منهم. وكانت تجارة مكة – في الغالب – بأيدي هؤلاء المجاورين، الوافدين، مما جعل الحساسية في أهل مكة تجاههم؛ لشعورهم أنهم سُلِبُوا كثيرًا من مصادر رزقهم، وكان أبناء الجيل

الأول من الوافدين يعانون من صعوبة في التفاهم مع السكان الأصليين الذين لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، إلا أن الجيل الثاني ما لبث أن امتزج في المجتمع المكي بالمصاهرة والمعاشرة، إلى أن صار أكثر أهل مكة خليطًا في خَلْقِهِم وخُلُقِهِم، وأدى هذا الامتزاج إلى تنوع الملبس والمأكل، كما أدى إلى ركاكة في لغة المكيين بعد أن كانت لغة قريش هي العربية الفصحى، ثم دخلت فيها بعض الألفاظ التركية والهندية والفارسية. وظهر تنوع الملبس؛ في العمامة الهندية إلى جانب القفطان المصري، والجبة الشامية، فكأنك تعيش في وسط يكتظ بمجموعات متباينة من الأمم المختلفة، ولكن يجمع هؤلاء جميعًا رباط ديني متين؛ هو انتماؤهم إلى الإسلام.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة المقدسة الاحتفال بمطلع أول كل شهر هجري (الأشهر القمرية) ويقول فى ذلك ابن بطوطه : وعادتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع، على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان. وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، به يصلون صلاة العيد، لأنه لا موضع أفضل منه. ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم في عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه، ويطوف

بالبيت أسبوعا، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقعة أمامه، وهو لابس السواد، فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة. ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون([٢١٦]).

وفيما يتعلق باستقبال أهالي مكة للمحمل كانت عادة أمراء مكة الخروج لاستقبال المحمل وتقديم كل ما يحتاجه من خدمة، كما أن قدومه كان مناسبة تحمل تباشير الخير والرفاه لأهل مكة والمدينة وحكامهما، حيث ترسل الهبات والصدقات بصحبة المحمل، بالإضافة إلى أن إمرة المحمل تسند إلى كبار الأمراء المماليك، الذين على أمراء مكة والمدينة استرضاؤهم، ولذا استحق منهم الاهتمام وحسن الاستقبال.

وكان أهل مكة والمدينة يتأهبون طوال شهر شوال لاستقبال الحجاج، ومحمل الكسوة في ذي القعدة وأوائل ذي الحجة، فبعد أن يمر محمل الكسوة بينبع وبالمدينة المنورة، فيحتفل أمراء المدينتين به احتفالاً كبيرًا، ثم يتوجه إلى مكة، فيخرج أمير مكة لتلقيه على مسافة منها، فيترجل عن جواده ويقبل خف جمل الكسوة، ثم يسير في صحبة أمير الحج ورجال الركب حتى يدخل مكة، وكانت العادة أن يُكلف أمراء الحرمين وينبع

---

216 – ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٧ .

- بالإضافة إلى تقبيل خف الجمل، تقديم الحيوانات والأموال للأعراب، الذين يحرسون الطريق لتأمين المحمل.

obeikandl.com